نقد الحروب الصليبية

تأليف پالمر ا . ثروپ

THROOP (PALMER A.) : *Criticism of the Crusades*
(Swets & Zeitlinger, Amsterdam, 1940).

يحضرنى خلال قراءتى هذا الكتاب شعور وضح لى حين غادرت إستانبول صيف سنة ١٩٣٦ م ، إذ رتبت رجوعى إلى القاهرة عن طريق إكسبريس الشرق الذى يخترق آسيا الصغرى إلى الشام وفلسطين ومصر . وفى صباح باكر عبرتُ البوسفور من الشاطىء الأوربى إلى الشاطىء الأسيوى ، وتحرك القطار والساعة لم تبلغ الثامنة ، حتى إذا اكتمل حركته ملء البخار أخذ ينهب طريقه فى لهث ، صاخبا مخترقاً أرضاً جبلية معظم الأحيان ، سهلية آقل الأحيان ، وهى أرض تربط مناظرها المسافر العابر إلى شباك مقعده برباط وثيق ، وتفتح عينيه فتحة الإعجاب والإمتاع والمؤانسة ، ولا سيما حين تنفرج الجبال والتلال المارة فى سرعة عن أمواه بحر مرمرة وزرقتها الصافية بعض المواضع ، ثم خضرتها الصافية كذلك بعض المواضع الأخرى . وطوى القطار هذا الطريق الساحلى السحرى – وهو طريق القوافل والمتاجر بين آسيا وأوربا منذ القديم ، تولاه الرومانيون بالتعبيد ، شأنهم بجميع الطرق الواصلة بين ممتلكاتهم ، ثم اقتفت السكة الحديدية والبخار تعبيدهم ، كما هو الحال فى معظم الطرق التى تجرى عليها السكك الحديدية بالبلاد التى امتدت إليها الدولة الرومانية القديمة . وعبر القطار على سكودار (خلقدونية) ، وإزميت (نيقوميديا) ، دون أن يتمهل أو يتوقف ؛ ثم عرج نحو إسنك (نيقية) ، دون أن يقترب منها ؛ ثم لم يلبث أن صار فى جوف آسيا الصغرى ، وصارت مناظر الطريق رتيبة كالحة ، مما يسمح للمسافر أن يتلهى عنها وعن المحطات المتعاقبة بطعام أو غفوة منام ، أو صفحات من كتاب . وفى عصر ذاك اليوم حول الساعة الرابعة وقف القطار وقفة طويلة عند محطة إسكى شهر ، وهى دورليوم ذات الشهرة فى أخبار الحملة الصليبية المعروفة بالأولى . ومرّ بخاطرى

وقتذاك ما يتواتر فى الكتب العامة بشأن هذه الحملة التى عبرت البوسفور أوائل إبريل سنة ١٠٩٧ م ، واخترقت هذا الطريق إلى دوراليوم حتى وصلتها أوائل يولية من السنة نفسها — لا بإكسبريس الشرق السريع ، بل بجيش إقطاعى وئيد الحركة ، ثقيل العدة والمؤونة ، مختلف القيادات والطاعات ، قليل المعرفة بالجغرافيا ، وذكرت نص هذا المتواتر فى الكتب عن هذه الحملة ، وهو « ثم رحل الصليبيون عن القسطنطينية ، واخترقوا آسيا الصغرى إلى دوراليوم ، فاستولوا عليها عنوة من سلطان السلاجقة بالروم ، وأخذوا طريقهم منها إلى الشام » .

وهنا كشفت لنفسى — وليس لأول مرة — سعة الهوة بين بعض المتواتر من الحقائق فى كتب التاريخ وبين الحقيقة ، ولا سيما حين يكون بعض ذلك المتواتر خلواً من طعم الجغرافيا ، وعرفت أن الأسطر القليلة التى يقرأها القارئ فى التاريخ تنطوى أحياناً على ما يملأ مجلداً من الحوادث المنسية ، وربما يكون بعض هذه الحوادث مما يشرح ظاهرة من الظواهر التاريخية اللاحقة . ومصداق ذلك أن استيلاء البيزنطيين المرافقين للحملة الصليبية المعروفة بالأولى على نيقية من سلطنة السلاجقة بالروم صلحاً ، وهى من أوائل المدن التى وقفت عندها الجيوش الصليبية والبيزنطية قبل دوراليوم ، كان بذرة من بذور العداوة الصليبية والبغض نحو البيزنطيين — أى البذرة التى أثمرت ما هو معروف فى التاريخ باسم الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤ م ، حين هدم الصليبيون بناء الإمبراطورية البيزنطية هدماً أكد ضعفها وانحلالها وسهولة زوالها على أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣ م .

يحضرنى ذلك كله فى نقد هذا الكتاب لأنه أثار فى نفسى شعورا مشابها ، إذ موضوع الكتاب بحث فى فشل الحروب الصليبية ما تقدم منها وما تأخر ، وهو فشل يرجع معظمه فى نظر المؤرخين إلى انصراف ملوك غرب أوربا إلى شئون ممالكهم وغيره من الأسباب المتواترة ، حتى إذا انتهيت من قراءة هذا الكتاب ألفيت أسباباً جديدة . على أن المؤلف لم يعمد إلى حوادث الحملات الصليبية ذات الأرقام وغير ذات الأرقام ليجعل منها مادة للمضى فى بحثه ، فهذه عملية سهلة ، وما عليه إلا أن يأخذ الحملة الصليبية المعروفة بالثانية مثلا ، فيدلل على فشلها من تنكبها عن غرضها إلى مسألة دمشق ، أو يأخذ الحملة

الصليبية المعروفة بالثالثة ، فيدلل على فشلها كذلك من اختلاف ملكى إنجلترا وفرنسا على سياسة الحملة . أقول إن المؤلف لم يعمد إلى هذه الطريقة التقليدية القريبة ، لأنها ليست سبيله فى البحث ، بل اتخذ موقفاً عند سنة ١٢٧٤ م ، وهى السنة التى جمع فيها البابا جريجورى العاشر مجلساً دينياً لاستبانة الطرق والمسالك والوسائل والإمكانيات لمشروع حملة صليبية إلى الشرق ، ثم جمع المؤلف إليه المواد المكتوبة التى أنتجها هذا المشروع ، وهى مجموعة رسائل ومذكرات طويلة قدمها أصحابها بناء على أمر البابا ، أولها رسالة كتبها راهب فرنسسكانى عنوانها : Collectio de Scandalis Ecclesiae يشرح فيها سخط الناس فى مختلف الممالك الأوروبية من أساليب بعض رجال الكنيسة فى جمع الأموال من أجل الحروب الصليبية ، وثانيها رسالة كتبها أسقف أولمتز بألمانيا قال فيها إن الأقربين من الأوروبيين الوثنيين أولى بالحروب الصليبية من المسلمين البعيدين ، وثالثها رسالة كتبها راهب دومنيكانى من طرابلس بالشام ، عنوانها De Statu Saracenorum ، وخلاصتها قلة الجدوى فى الحروب الصليبية وجيوشها وسيوفها ومقاتلها ، بالقياس إلى كثرة الفائدة من التبشير بالدين المسيحى بين المسلمين ؛ مثلما قام به القديس فرنسيس لدى السلطان الكامل فى مدينة المنصورة ، لا دمياط كما قرر المؤلف .

وبالإضافة إلى هذه الرسائل والمذكرات الطويلة بضع رسائل قصيرة ذكرها المؤلف فى الفصل السادس من كتابه ، واستخدمها استخداماً تحليلياً دقيقاً فى بحثه . ولعل أعمق ما اشتملت عليه كل هذه الرسائل والمذكرات من ملاحظات أن إخفاق ملك فرنسا لويس التاسع مرتين فى حملتين صليبيتين كبيرتين — وهو التقى النقى الذى قدسته الكنيسة وحاطه المعاصرون بالجلالة الدينية والإخلاص لوجه الدين — شكك القلوب بأنحاء أوربا فى رضى الله عن الحروب الصليبية وفكرتها . ومن المعروف أن القديس برنارد أسهم بالدعوة الحارة للحروب الصليبية السابقة لأيام ملك فرنسا لويس التاسع ، وهو لا يقل عنه قداسة وجلالة ومكانة فى العقل الدينى الأوربى ، ومن المعروف كذلك أن هذه الحروب فشلت برغم القديس برنارد ، فمن باب تطبيق اللاحق على السابق نستطيع أن نقول بأن فشل هذه الحروب خلق بين الناس شيئاً من الشك فى الفكرة الصليبية كلها منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، بل نستطيع أن ندلل

من المادة التاريخية الخاصة بالحملة الصليبية المعروفة بالأولى أن كثيراً من الناس خالوا الفكرة الصليبية غروراً وفساداً ومضيعة(١) .

ولمن يريد الإلمام بأسباب أخرى من أسباب الفشل الصليبى التى استخرجها المؤلف من أحوال فى جوف المجتمع الأوربى أن يرجع إلى الصفحات ١٥٣ — ١٧٤ من الكتاب .

غير أنى ألاحظ على المؤلف هنا أنه لم يضف إلى هذه الأسباب سبباً خارجياً رددته المراجع التى استأداها لبحثه فى كثير من المواضع ، وهو ما استولى على المسلمين من روح معنوية عظيمة منذ استطاع صلاح الدين أن يجعل من بلاد الشرق الأوسط جبهة إسلامية متحدة ، وأن يحرز انتصارات كثيرة ضد الصليبيين . وألاحظ على المؤلف كذلك إغفال الدنيوية الظاهرة والباطنة التى أفسدت على الصليبيين نياتهم وأعمالهم منذ الحملة الصليبية المعروفة بالأولى ، وشبيه بهذه الحركة الدنيوية ما غشى نواحى المقاومة الإسلامية وشخصياتها من انفصالية وأطماع توسعية محلية غير قليل من الأحيان بعد صلاح الدين .

وثمة ملاحظة أخرى من نوع آخر ، وهى أن ليس بهذا الكتاب الممتع كشاف فى آخره ، وإذا كان من حظ كاتب هذه السطور أن يقرأه وينتفع به ، فإن وجود كشاف له مما يساعد على دوام الانتفاع به لاستجلاء مسألة لا يتسع الوقت دائماً للعثور عليها فى الكتب العاطلة من هذه لأداة اللازمة للباحثين . وبالكتاب أخطاء مطبعية هجائية ، (انظر مثلا ٣٩ ، ١٢٣ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢١٤ ، ٢٦٤) لعل مصدرها طبعه فى أمستردام بهولندا والحرب العالمية الثانية على أشدها ، وربما كان هذا كذلك هو السبب فى عدم استطاعة المؤلف أن يتوفر على إعداد كشاف لكتاب هو فى الواقع ذخيرة فريدة فى موضوعه .

محمد مصطفى زيادة

---

(١) انظر (Runciman: A History of the Crusades P .141, note 2) وما هنالك من مراجع